الرحالة المغاربة والأندلسيين في القرنين الخامس والسادس الهجريين

عذراء علي حسن أ. د. بثينة جبار زاجي الغزي

athraaa134@gmail.com buthinazaji@gmail.com

الجامعة المستنصرية ، كلية التربية ، قسم التاريخ

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى كشف الصورة الأخرى في كتب الرحالة المغاربة والأندلسيين وتمحيصها من خلال ما قدمه الرحالة الأندلسيون والمغاربة في مؤلفاتهم، وما حملته بين طياتها من الأخبار والحوادث والوقائع ساهم الرحالة العرب الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عبر أعمالهم في تجسيد الانفتاح الثقافي والمعرفي على العالم الخارجي، وتسعفنا هذه الرحلة في رؤية العالم، والوقوف على عدد كبير من مظاهر الحضارة الإنسانية، بحيث نسافر مع الرحالة ونتأمل ما تجود به قرائحهم، فالرحلة هدف يطمح إليه العقل مع الأخذ بعين الاعتبار، وكان لهؤلاء الرحالة الفضل الكبير على الباحثين من الجغرافيين والمؤرخين، وقد تركوا كنوزا من المصنفات تحولت إلى رصيد حضاري إنساني.

الكلمات المفتاحية: الرحالة، الرحلات، البيروني، ابن جبير، المراكشي

Moroccan and Andalusian travelers in the fifth and sixth centuries AH

Adhraa Ali Hassan prof. Buthaina Jabbar Zaji Al-Ghazi

athraaa134@gmail.com buthinazaji@gmail.com

Al-Mustansiriya University, College of Education , Department of History

Abstract:

This study aims to reveal the other image in the books of Moroccan and Andalusian travelers and scrutinize it through what the Andalusian and Moroccan travelers presented in their writings, and the news, incidents and facts they contained within them. The Arab travelers who lived in the fourth century AH (tenth century AD) contributed through their works to embodying cultural openness. And knowledge about the outside world, and this journey helps us to see the world, and learn about a large number of aspects of human civilization, so that we travel with the travelers and contemplate what they have in their minds. The journey is a goal that the mind aspires to, taking into account, and these travelers had great credit for the geographers. Historians have left behind treasures of works that have turned into a human cultural asset.

Keywords: travelers, travels, Al-Biruni, Ibn Jubayr, Al-Marrakshi

المقدمة

ترك الرحالة العرب الأوائل نتاجاً غزيراً في مجال الرحلات، وامتازت رحلاتهم البديعة بمزايا عديدة، توقف عندها الاكاديميين والباحثون كثيراً، ولا سيما المستشرقون الذين أشبعوا هذه الرحلات دراسة وتمحيصاً وتحقيقاً، وتوصلوا إلى حقيقة هامة وهي أن الرجل العربي كان يحب الترحال والتنقل من بلد إلى بلد، يدفعه إلى ذلك حب الاستطلاع والاستكشاف، وكله أمل في ملاقاة عوالم أخرى وشعوب مختلفة ليعود إلى مسقط رأسه فرحاً يقص على الناس أخبار رحلاته.

وفي هذا البحث حاولت الباحثة الكتابة عن أشهر الرحالة العرب، والتعريف بنتاجهم في الرحلات، مع اقتطاف نصوص مختارة من هذه الرحلات، واعتمدت في ترتيبهم على التسلسل الزمني. وكل الذين كتب لهم عرب خلص

باستثناء البيروني، وقد أضفتهم هنا لأنهم نشأوا على الثقافة العربية ويتكلمون اللسان العربي، ولأنهم في الأساس كتبوا نصوص رحلاتهم باللغة العربية.

اولاً: محمد البيروني(ت: 440هـ)

محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي[*] علامة وأديب وفيلسوف ورحالة، يكنى أبا الريحان، أكبر رحالة فيلسوف عند العرب في القرن الخامس الهجريم/ الحادي عشر الميلادي (الصفدي، 2000، صفحة 65)

ولد سنة 362هـ وبرز كأكبر شخصية علمية إبان النصف الأول من القرن الخامس الهجري، إلى حد أن أطلق جورج سارتون، وهو مؤرخ تاريخ العلوم الشهير، على النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي اسم عصر البيروني (فهيم، 1989، الصفحات 65-66)، وهو فارسي من إقليم خوارزم (فهيم، 1989، صفحة 65)، ورغم فارسيته[*] إلا أنه من ذوي العقول المتفلسفة الكبيرة التي يفخر بها العرب (الطباع، الهاشمي، و البيروني، 1993، صفحة 69) ، ولقد أجمع الباحثون العرب والمستشرقون على علو شأن البيروني بين الرحالة العرب والمؤرخين المسلمين وأن منهجه قد تميز على غيره في كثير من الأمور حتى اعتبره البعض منهجاً علمياً في وصف ودراسة الحضارات الإنسانية وقد كانت وفاته سنة 440هـ، بعد رحلة حياة كانت حافلة بالعطاء العلمي المنقطع النظير(الطباع، الهاشمي، و البيروني، 1993، صفحة 95).

وصف رحلته:

للرحالة البارز محمد البيروني كتاب نفيس في فن الرحلة العلمية أسماه تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة وهو نتاج رحلة علمية قام بها إلى الهند بعد أن صحب السلطان محموداً الغزنوي في فتوحاته المشهورة بالهند، واستقر فيها أربعين عاماً يدرس ويفحص، واستطاع أن يتعلم لغتها القديمة السنسكريتية(فهيم، 1989، صفحة 65)وكانت علاقة البيروني بالسلطان الغزنوي قوية، وكان الغزنوي يعرف منزلة البيروني العلمية، فلذلك جاء به من خوارزم إلى غزنه (فهيم، 1989، صفحة 66)، و(انضم البيروني إلى ركب السلطان المشار اليه عند فتحه للهند، وقام برحلات وجولات بالهند) (فهيم، 1989، صفحة 126) وكتابه المشار اليه ليس رحلة بالمعنى الذي نعرفه في كتب الرحلات، وإنما هو موسوعة الجغرافية الهند وتاريخها ومعارفها في العلوم وخاصة الرياضة والفلك، ويتحدث في رحلته هذه عن قضائهم وعقوباتهم وكفاراتهم وما عندهم من تأديب وتفريم ومواريثهم وحرقهم لموتاهم وصيامهم وأعيادهم وأفراحهم وأيامهم المعظمة وأوقاتهم المسعودة والمنحوسة لاكتساب الثواب ومجامعهم وأنهارهم المقدسة وما يؤمنون به من أحكام النجوم، وكل ما يسمهم في عاداتهم وطباعهم (فهيم، 1989، الصفحات 65-66). وبعد الكتاب وثيقة تاريخية إثنوجرافية، والبيروني لم يدرس طبيعة هذه البلاد وأحوال سكانها فحسب، بل درس كذلك لغتها وآدابها في مختلف بيئاتها، ووقف بنفسه على رسومها وتقاليدها، وهو فيما يكتبه عنها يعتمد على ما شاهده بنفسه وسمعه بأذنيه أكثر مما يعتمد على ما قرأه وإن البيروني قد وضع أساساً منهجياً هاماً تشكلت على أساسه انطلاقة الدراسات الحقلية الإثنوجرافية[*] التي أدت بدورها إلى نقلة كبرى من الاتجاه النظري التطوري في دراسة الحضارة الإنسانية، وكان البيروني محيطاً إحاطة جيدة بمعارف

---

[*]البيروني الخوارزمي: وهذه النسبة معناها البراني ، لأن بيرون بالفارسية معناه برا ، كما ان مقامه بخوارزم كان قليلاً ، وأهل خوارزم يسمون الغريب بهذا الاسم، كأنه لما طالت غربته عنهم صار غريباً، وما أظنه يراد به إلا أنه من أهل الرستاق، يعني أنه من برا البلد. ينظر: (الحموي، 1993، الصفحات 2330/1-2331)

[*]لم تكن عند البيروني نزعة شعوبية تجاه العرب كما ادعى بعض المستشرقين، بل كان على العكس من ذلك تماماً محباً للعرب وللغة العربية التي جعل منها لغة العلم والحضارة، وازرى على لغته الأم الفارسية ورأى أنها (لا تصلح إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية). (الطباع، الهاشمي، و البيروني، 1993، الصفحات 58-59)

[*]الإثنوجرافية: كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة. ينظر: (فهيم، 1989، الصفحات 18-19)

عصره، الأمر الذي انعكس على مادة كتابه عن الهند، وكتبه الأخرى على حد سواء، وكما كان رحالة ومؤرخاً وفيلسوفاً، فقد كان كذلك عالماً اثنوجرافيا (فهيم، 1989، صفحة 66).

نصوص مختار من رحلته

(طعام أهل الهند) الإماتة في الأصل محظورة عليهم بالإطلاق، كما هي على النصارى والمانوية(*)، ولكن الناس يقومون (فهيم، 1989، الصفحات 64-66)إلى اللحم وينبذون فيه وراء ظهورهم كل أمر ونهي، فيصير ما ذكرناه مخصوصاً بالبراهمة(*) لاختصاصهم بالدين ومنع الدين إياهم عن إتباع الشهوات، كالمثال فيمن هو فوق أساقفة النصارى من مطران وجاثليق، وبطرق دون من يسفل عنهم من قس، وشماس إلا من تبرهن منهم زيادة على رتبته، وإذا كان الأمر هذا أُبيحت الإماتة بالتخنيق، وإمساك النفس في بعض الحيوان دون بعض وحرمت الميتة من المباحات إذا ماتت حتف أنفها، فأما المباحات فهي الضأن والمعز والظباء والأرانب وكندة القرني الأنف والراريج (الفراريج) والحمام والطواويس وما لا تعافه النفس مما لم يرد به حظر، والمنصوص على تحريمه البقر والخيل والبغال والأحمرة والأبعرة والفيلة والدجاج الأهلية والغربان والببغاء والشارك وبيض جميعها بالإطلاق والخمر إلا لشودر(*)، فإن شربها مباح له وبيعها محظور عليه كبيع اللحم، وقد قال بعضهم إن البقر كان قبل (بهارث) مباحاً، ومن القرابين ما فيه قتل البقر إلا أنه حرم بعد بهارث لضعف طباع الناس عن القيام بالواجبات كما جعل بيذ(*)وهو في الأصل واحد أربعة أقسام تسهيلاً على الناس، وهذا كلام قليل المحصول فإن تحريم البقر ليس بتخفيف ورخصة، وإنما هو تشديد وتضييق، وسمعت غير هؤلاء يقولون: إن البراهمة كانت تتأذى بأكل لحمان البقر، لأن بلادهم جروم، وبواطن الأبدان فيها باردة والحرارة الفريزية فيها فاترة، والقوة الهاضمة ضعيفة يقوونها بأكل أوراق التنبول عقب الطعام ومضغ الفوفل فيلهب التنبول بحدته الحرارة وينشف ما عليه من النورة البلة، ويشد الفوفل الأسنان واللثة ويقبض المعدة، ولما كان كذلك حظروه للغلظ والبرودة. (فهيم، 1989، صفحة 66)

ثانياً: ابن جبير(ت: 450هـ)

محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي شاعر وأديب ورحاله، ولد في مدينة بلنسية سنة (540هـ / 1145م)، وكان أصل أسرته من بلدة شاطبة، واهتم والده بتربيته، فدرس العلوم الدينية واللغوية، وبدأ نبوغه مبكراً وسرعان ما أن تيقظت فيه مواهبه الأدبية، فاخذ في قرض الشعر، وكان يكنى بأبي الحسن وبعد أن لمع اسمه، ألحقه حاكم غرناطة أبو عثمان سعيد بن عبد المؤمن بكتاب ديوانه، وخَفَّ على نفسه، فكان يحضره مجلس شرابه، وكان ينقبض عن الشرب، فألح عليه الحاكم أن يشرب معه، وأقسم عليه ليشر بن سبعاً، وجاراه، فشرب سبع كؤوس وسُرّ الأمير، وملأ له الكأس بالدنانير سبع مرات، وصبها في حجره، فأصر في نفسه أن يكفر عن سيئته، وأن ينفق هذه الدنانير في الحج إلى بيت الله، ولم يلبث أن أعلن عزمه لأبي عثمان، وأنه حلف بأيمان لا محيص له من البربها، فأعانه على ما ابتغاه، وكانت هذه الحادثة وراء قيامه برحلته المشهورة إلى المشرق(فهيم، 1989، صفحة 70)

(*)المانوية: هم أعوان الملوك من البراهمة، وتعاليم مانو نصت على تقديس طبقة رجال الدين من البراهمة وأوجب على الملوك احترامهم وجعلت أملاكهم مقدسة لا يعتدى عليها وهم أعوان الملك في سلطانهم النبواقراطي المستمد من الإله برهما. (غانم، 1989، صفحة 207/1).

(*)البراهمه: هم رجال الدين وهم حسب النظام الديني للهندوس يأتون في الدرجة الأولى بين طبقات أبناء المجتمع الهندي، وأشرف الطبقات الهندية هي طبقة البراهمة ويزعم البراهم أنهم خلقوا من رأس (براهم) وحيث خلقوا من رأس براهم فهم نقاوة الجنس ولذلك المجتمع الهندي يرى البراهمة على أنهم خير البشر. ينظر: (غانم، 1989، الصفحات 203-204).

(*)الشوادر: يأتون في الطبقة الرابعة من طبقات المجتمع الهندي ويطلق عليهم لقب الخدم. ينظر: (غانم، 1989، صفحة 208).

(*)بيذ: كتاب مقدس عند الهنود نسبوا ما جاء به إلى الله تعالى على لسان براهم ويتلوه البراهمة ينظر: (غانم، 1989، صفحة 207).

وصف رحلته:

قامت شهرة ابن جبير على كتابه الذي عُرف باسمه رحلة ابن جبير، إذ أنه جاء ثمرة لرحلات ثلاث قام بها، أهمها رحلة استغرقت أكثر من ثلاث سنوات وقد بدأها في سنة 578هـ، وختمها في سنة 581هـ، وقد جاء هذا الكتاب حافلاً بالمشاهد والتجارب التي اكتسبها أثناء تجواله في عجائب البلدان والمدن ورؤيته لغرائب المشاهد، واطلاعه على الشؤون والأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية التي كانت سائدة في تلك الحقب من الزمن (الاندلسي، 2003، صفحة 5)وابتدأ مسار رحلته من غرناطه في سنة 578هـ / سنة 1183م، وركب البحر في سفينة لبعض أهل جنوة قاصداً إلى الإسكندرية ونزل بها، وولى وجهه إلى القاهرة ومنها إلى قوص بصعيد مصر، ثم عيذاب حيث اجتاز البحر إلى جدة واتجه من فوره إلى مكة، فادى فريضة الحج وزار المدينة، وظل في هذه البلاد المقدسة نحو ستة أشهر ثم قصد إلى الكوفة، ثم بغداد والموصل ولم يمر مروراً عابراً بهذه البلاد، بل كان يمكث بعض الوقت يدرس ويفحص، وانتقل إلى الشام وكان للصليبيين فيها مستعمرات كثيرة، فجاس خلال ديارهم، وأخيراً ركب البحر من عكا عائداً إلى بلاده على مركب مسيحي، وألمت المركب بصقلية، فنزل فيها وطاف ببلادها، ثم رحل إلى بلاده ووصل إليها في سنة 581هـ / سنة 1185م، ورحل ابن جبير إلى المشرق بعد هذه الرحلة مرتين، فإنه سمع بفتح صلاح الدين لبيت المقدس واستيلائه عليه من أيدي الصليبيين، فحدثته نفسه أن يزور هذه الأماكن وعلم الإسلام والعرب يرفرف عليها، ولم يلبث أن رحل رحلته الثانية في سنة 585هـ / 1189م وعاد إلى بلاده في سنة 587هـ / 1191م، وماتت زوجه فحزن عليها حزناً شديداً، وقد خصها بديوان شعره، ولم يجد عزاء إلا أن يُحج إلى بيت الله، فرحل رحلته الثالثة في سنة 614هـ / 1217م وأقام بمكة مدة، ثم تحول عنها إلى الإسكندرية، وأقام بها يُحدث ويؤخذ عنه إلى أن لبى نداء ربه، وكانت وفاته سنة 614هـ / 1217م (فهيم، 1989، الصفحات 70-94).

نصوص مختارة من رحلته

(مستشفى للمجانين) المارستان في مدينة القاهرة، وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً وعيّن قيماً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة واقامتها على اختلاف أنواعها، ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى، وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم، وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى، ولهن أيضاً من يكفلهن، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت محابس للمجانين، ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويُقابلها بما يصلح لها، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد، وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه. (الاندلسي، 1986، صفحة 24)

ثالثاً: ابو حامد الأندلسي (ت: 564هـ)

أبو حامد محمد بن عبد الرحيم المازني الأندلسي (حميده، 1995، صفحة 299)أحد الرحالة الأندلسيين، عاش أكثر حياته في القرن السادس الهجوي (474 - 564هـ /1080 -1169م) وشغف بالرحلة، فزار إفريقية الشمالية وصقلية، كما زار مصر والشام والعراق، وتحول إلى ناحية البحر الأسود (بحر الخزر) وتوغل في بلاد البلغار على ضفاف نهر الفولجا بلاد الصقالبة وإقليم باشغرد الواقع بين البلغار والقسطنطينية(فهيم، 1989، صفحة 51)

وصف رحلته:

وكانت نتيجة رحلته إلى البلدان المشار اليها بتأليف كتاب بعنوان: تحفة الأصحاب ونخبة الإعجاب، ونشر بعض المستشرقين ما شاهده، أبو حامد، في شرق أوروبا، وقد روى كثيراً من الأخبار عن الأقاليم الممتدة شمالي البلغار إلى المحيط المتجمد الشمالي، وهو يُسميها (ويسوا ، يورا) ويعود أبو حامد من هذه الديار مولياً وجهه نحو الشرق، ويصل إلى إقليم خوارزم (فهيم، 1989، الصفحات 51-56)وله كتاب آخر في فن الرحلة بعنوان (المعرب في عجائب المغرب).

نصوص مختارة من رحلته

(بلاد الصقالبة) [*]ولما دخلت إلى بلاد الصقالبة خرجت من بلغار وركبت سفينة في نهر الصقالبة وماؤه أسود مثل ماء بحر الظلمات المحيط الأطلسي كأنه الحبر، وهو مع ذلك حلو طيب صاف، ليس فيه سمك، وفيه الحياة السود الكبار بعضها على بعض، أكثر من السمك لا تؤذي أحداً، وفيه حيوان مثل السنور الصغير له جلد أسود يُسمى سمور الماء تُحمل جلوده إلى بلغار(حميده، 1995، صفحة 306). ولما وصلت إلى بلادهم رأيت بلاداً واسعة، كثيرة العسل والحنطة والشعير والتفاح الكبير، ويتعاملون بينهم بجلود السنجاب القديم الذي لا شعر عليه. وللصقالبة[*] سياسات عظيمة، إذا تعرض أحد الجارية غيره أو ولده أو دابته أو تعدى بأي شيء من التعدي كان، أخذ من المتعدي جملة من المال، فإن لم يكن له مال بيع أولاده وبناته وزوجته في تلك الجناية، فإن لم يكن له أهل ولا أولاد بيع هو، فلا يزال عبداً يخدم من يكون عنده حتى يموت. وبلادهم آمنة وإذا عامل المسلم منهم أحداً وأفلس الصقلبي بيع هو وأولاده وداره، ويُعطى لذلك التاجر دينه، والصقالبه شجعان، وهم على مذهب الروم في النصرانية، نسطورية وحدثت عنهم أنهم كل عشر سنين يكثر السحر عندهما وتفسد عليهم نساؤهم بالعجائز السحرة، فيأخذون كل عجوز في ولايتهم، فيشدون أيديهن فأرجلهن ويلقونهن في النهر، فكل من رسبت من العجائز في الماء تركوها، وعلموا أنها ليست بساحرة، والتي تطفو على الماء يُحرقونها بالنار (حميده، 1995، الصفحات 55-56).

ملك باشغرد [*]يُسمى كزالي، وملكه أعظم من ملك صاحب الروم أضعافاً مضاعفة، لا تُحصى جنده، وولايته أكثر من ولاية الروم عشرين يوماً وأكثر، وهو على مذهب الإفرنج يُريد أنه مسيحي لأنه تزوج منهم، ويغزو بلاد الإفرنج ويسبيهم، وجميع الأمم يُخافون من شره لكثرة جنده وشدة بأسه. ولما سمع أنني منعت المسلمين من شرب الخمر، وأبحت الجواري وأربعة من الحرائر قال: (ليس هذا من العقل، لأن الخمر يقوي الجسد، وكثرة النساء تضعف الجسد والبصر، ودين الإسلام لا يكون على وفق العقل) قال: فقلت للترجمان (قل للملك: شريعة المسلمين ليست مثل شريعة النصارى، النصراني يشرب الخمر على الطعام بمنزلة الماء ولا يسكر، والمسلم الذي يشرب الخمر إنما يطلب منه غاية السكر، فيذهب عقله، ويصبح كالمجنون يزني، ويقتل، ويكفر، ولا خير عنده، وقد يعطي سلاحه وفرسه ويضيع ماله في سبيل لذته، والمسلمون ها هنا جنده، وإذا أمرت الواحد بالغزو لا يكون له فرس ولا سلاح ولا مال، لأنه أهلكه في الشراب (الاندلسي، 2003)

وتزوج (الاندلسي) بامرأتين من بنات المسلمين المحتشمين، ورزق أولاداً، وهو شجاع فاضل، كنت اعطيه على كل مسألة يحفظها في حال صفره نصف دائق، وفي شفرد بقر وحشية (حميده، 1995، صفحة 306)كبار أمثال الفيلة، جلد الواحد منها حمل بغلين قويين ورأسه حمل عجله، يصطادونه ويُسمى التيتل وهو من أعجب الحيوان ، طيب اللحم، سمين، وقرونه كبار طوال مثل أنياب الفيلة (حميده، 1995، الصفحات 55-56).

وأهل ويسو ويورا يُمنعون في الصيف من دخول بلاد بلغار (فهيم، 1989، صفحة 56)، لأنه إذا دخل في تلك الديار منهم واحد في شدة الحر يبرد الهواء والماء مثل الشتاء، وتفسد على الناس زروعهم وهذا مجرب عندهم وقد رأيت في بلغار زمان الشتاء جماعة منهم حمر الألوان زرق العيون شعورهم مثل الكتان إلى البياض، يلبسون ثياب الكتان في

---

[*]بلاد الصقالبة: بلاد شرقيها البلغار الداخلة وبعض من بلاد الروس، وجنوبيها بعض بحر بنطس وبعض من الروم، وبلاد الصقالبة ضاربة في الشمال، شديدة البرد لا يكاد الثلج يقلع عن أرضها صيفا ولا شتاء وقل ما يرى أهلها أرضا ناشفة. (شاكر، 1994، صفحة 27/21)

[*]الصقالبة: هم الموالي هم عبيد على الأغلب من الرقيق، الذين يؤتى بهم بالأخص من بلاد الفرنج وحوض الدانوب وبلاد اللو نبارد ومختلف ثغور البحر الأبيض ويبيعوهم في الأندلس، وكان يؤتى بهم أطفالا من الجنسين و يربون تربية إسلامية، ثم يدربون على أعمال البطانة وشئون القصر، وقد سما شأنهم فيما بعد، وتولوا مناصب الرياسة والقيادة، واصبحوا احد أفراد المجتمع الاندلسي والمغربي خلال العصور الوسطى. (عنان، 1997، صفحة 249).

[*]الباشغرد: أصولهم من البلغار الذين كان موطنهم الأول حوض نهر الفولغا ومن بقي منهم هناك يعرف اليوم باسم (الباشكير). (حميده، 1995، صفحة 305)

ذلك البرد، ويكون على بعضهم فراء من جلود القندز الجياد، وشعر ذلك القندز إلى الخارج مقلوباً، ويشربون ماء الشعير الحامض مثل الخل، فيوافقهم لحرارة مزاجهم، لأكلهم لحم القندز والسنجاب والعسل(فهيم، 1989، صفحة 54).

رابعاً: الادريسي (ت: 560هـ)

محمد بن محمد (حاجي خليفة، 1943، صفحة 1947/2) (البغدادي، 1951، صفحة 94/2) بن عبد الله بن ادريس ويعرف بالشريف الادريسي (الصفدي، 2000، صفحة 138/1)، اديب وشاعر وجغرافي (الصفدي، 2000، صفحة 138/1) (الزركلي، 2002، صفحة 24/7) ، ولد في مدينة سبته[*] سنة (٤٩٣هـ/١٠٩٩م)، واما وفاته فهي بعد مغادرته مدينة صقلية الى مسقط رأسه مدينة سبته، وكان ذلك في سنة (٥٦٠هـ/١١٦٦م). (البغدادي، 1951، صفحة 94/2)

ويعتبر الادريسي من اكبر جغرافي بلاد المغرب والاندلس فقد امدته رحلاته المتعددة الى بلدان العالم بكثير من العلوم، وما زادها قيمة حسه الجغرافي ووصفه الجيد ومهاراته في صناعة واعداد الخرائط الجغرافية. (الريامي، 2013، صفحة 54)

صفة رحلته

ارتحل الإدريسي إلى الأندلس والمغرب ومصر والشام وآسيا الصغرى وانتهى به المطاف إلى صقلية، وكان قد احتلها النورمان وأزالوا منها حكم المسلمين، إلا أنهم عاملوهم بالحسنى، واشتهر بذلك أميرهم روجر الثاني الذي كان يعجب بالعرب وما أتقنوا من علوم ومعارف واتصل الإدريسي بهذا الأمير فأعجب كل منهما بصاحبه، وقد عرف فيه روجر قدرته البارعة على رسم الخرائط ومهارته في علم الجغرافية، فلطب إليه أن يؤلف فيها كتاباً له، فلم يهجم على التأليف مباشرة، بل أنفذ طائفة من الرحالة إلى بلدان متفرقة ليأتوه بالمعلومات، فكتبوا له تقارير بما شاهدوه، أضافها إلى ما شاهده بنفسه في البلدان(الريامي، 2013، صفحة 53) ، وجمع أكثر ما كتب في هذا العلم، واتخذ من كل ذلك مادة لتأليف كتابه الذي سماه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، كما يُسمى باسم كتاب روجر لأنه ألف من أجله، وقد نقل إلى اللاتينية موجز له في القرن السادس عشر، ومنذ هذا التاريخ يهتم بهذا الكتاب المستشرقون، إذ يرون في مؤلفه إسطرابون العرب وأكبر جغرافييهم على الإطلاق ولم ينشر الكتاب إلى اليوم، إنما نشرت قطع منه، وفي دار الكتب المصرية منه نسخة مخطوطة. وزود الإدريسي كتابه بإحدى وسبعين مصوراً ، ولذلك يعد أعظم مصنفات العصور الوسطى في الجغرافية، وهو يتبع الطريقة العربية، طريقة العرض الجغرافي القائم على المشاهدة، وتفصيل أحوال الأمم والسكان، وبيان ما بكل بلدة من عجائب البنيان والآثار. ولا يقف بكتابه عند وصف العالم الإسلامي، بل يضم إليه وصفاً دقيقاً للعالم المسيحي في أوربة، مفيداً من الرحالة الذين وضعهم روجر تحت إمرته، وقد أوفدهم إلى بلدان أوربة المختلفة، ونقلوا إليه كثيراً من المعلومات عن فرنسا وإيطاليا وألمانيا وأواسط أوربة وشرقها. وانتهى الإدريسي من تأليف هذا الكتاب سنة 548هـ / 1153م وتوفي روجر وخلفه غليوم الأول (1154–1166م) وألف له كتاباً آخر في الجغرافية سماه «روض الأنس ونزهة النفس أو كتاب المسالك والممالك(فهيم، 1989، الصفحات 19–21)

والإدريسي وإن كان من أكبر جغرافيي بلاد المغرب والأندلس (الكيلاني، 2014، صفحة 64)فإنه في نفس الوقت من أكابر الرحالة العرب، ذلك لأن علوم الجغرافيا في القديم كانت معتمدة على الرحلة وعلى مشاهدات الجغرافيين للبلدان والأصقاع المختلفة التي يزورونها، كما أمدته رحلاته المتعددة في أجزاء من أوروبا، وأقاليم عديدة من البلدان الإسلامية بنبع فياض من المعرفة الجغرافية زادها قيمة حسه الجغرافي ووصفه الجيد، ومهارته في صناعة وإعداد الخرائط، إن كرته الفضية التي نقش عليها الأقاليم السبعة، وألحقها برسم عشر خرائط جيدة لكل قسم من هذه الأقسام قد توجت أعماله جميعها فأضحت نتاجاً فريداً في زمانه. (الريامي، 2013، صفحة 53)

[*]سبته احدى مدن المغرب والتي تقع على البحر الرومي وهي مدينة كبيرة مسورة بسور ضخم محكم البناء، بناه عبد الرحمن الناصر، ينظر: (البكري، 1992، صفحة 779/2)

نص مختار من رحلته

مدينة طليطلة من طلبيرة شرقاً، وهي مدينة عظيمة القطر، كثيرة البشر، حصنة الذات، لها أسوار حسنة، ولها قصبة فيها حصانة ومنعة وهي أزلية من بناء العمالقة. وقليلاً ما رئي مثلها إتقاناً وشماخة بنيان وهي عالية الذرى، حسنة البقعة زاكية الرقعة وهي على ضفة النهر الكبير المسمى تاجه، ولها قنطرة من عجيب البنيان، وهي قوس واحدة، والماء يدخل تحت ذلك القوس كله بعنف وشدة جري. ومع آخر القنطرة ناعورة، ارتفاعها في الجو تسعون ذراعاً، وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة والماء يجري على ظهرها ، فيدخل المدينة ومدينة طليطلة كانت في أيام الروم دار مملكتهم وموضع قصدهم، ووجد أهل الإسلام فيها عند افتتاح الأندلس ذخائر كادت تفوق الوصف كثرة ، فمنها أنه وجد بها سبعون تاجاً من الذهب مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الثمينة، ووجد بها ألف سيف مجوهر ملكي، ووجد بها من الدر والياقوت أكيال وأوساق (حمول) ووجد بها من أنواع آنية الذهب والفضة ما لا يُحيط به تحصيل، ووجد بها مائدة سليمان بن داود وكانت فيما يُذكر من زمردة، وهذه المائدة اليوم في مدينة رومة والمدينة طليطلة بساتين محدقة بها، وأنهار جارية مخترقة، ودواليب دائرة وجنات يانعة وفواكه عديمة المثال لا يُحيط بها تكييف ولا تحصيل، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة تكنفها(الإدريسي، 2002، الصفحات 20-21)

خامساً: الرحالة المراكشي

رحالة مجهول لم يقف الباحثون، بعد على ترجمة تفصيلية لحياته، أو معلومات تكشف الغامض من حياة هذا الرحالة، وكل الذي يُعرف عنه أنه عاش في القرن السادس الهجري، وزار مكة والمدينة ومصر والسودان وبلاد المغرب، وبالنسبة لأصله فيرجح أن أصله قد يكون مغربياً، وتدل بعض المصادر ان التفصيلات التي ذكرها المراكشي عن مكناسة وفاس ومراكش من معلوماته غزيرة عن هذه المدن، فلا شك أنه عاش فيها إن لم يكن أصله منهم. (المراكشي، 1986، صفحة ت)

وصف رحلته.

ترك هذا الرحالة كتاباً في الرحلة بعنوان:(الاستبصار في عجائب الأمصار ومن خلال النظرة السريعة إلى كتاب الاستبصار تبين أن موضعه بين كتب المكتبة الجغرافية العربية)، إلا أنه يمكن اعتبار هذا الكتاب من كتب الرحلات، ذلك لأن الرحالة المراكشي سجل إلى جانب معلوماته عن هذه البلدان التي زارها مشاهداته فيها بكل دقة(المراكشي، 1986، صفحة ث)

وقد يكون غريباً أن تكون للجغرافية رحلات بعينها، ولكن هذا ما حدث فعلاً، فإن القوم لم يعمدوا إلى الكتابة في الجغرافيا بطريقة النقل والرواية عن الآخرين أو السابقين، بل كانوا يطوفون بأنفسهم في العالم الإسلامي وغيره، ويُقيدون مشاهداتهم وما يقع تحت أبصارهم. فأصبحت كتاباتهم الجغرافية في كثير من صورها رحلات بالمعنى الدقيق، تصور أحوال الناس والعمران بالعين الباصرة (فهيم، 1989، صفحة 5)

نصوص من رحلته

والإسكندرية تعجب كل من رآها لبهجتها وحسن منظرها، وارتفاع مبانيها وإتقانها وسعة شوارعها وطرقاتها وهي برية بحرية، وفيها من النعم والأرزاق والفواكه ما ليس ببلد مع الإسكندرية طيب هوائها وتربتها(المراكشي، 1986، صفحة 10). جانب من مدينة الإسكندرية (مدينة سرت) فمن مدينة الإسكندرية على الساحل عمائر كثيرة للعرب ولقبائل من البربر سكنوا في تلك الأحياء إلى مدينة سرت ومدينة سرت مدينة كبيرة قديمة على ساحل البحر، وأهلها أخس الناس خُلقاً وأسوأهم معاملة، لا يبيعون ولا يبتاعون إلا بسعر قد اتفقوا عليه. وربما نزل المركب بساحلهم موسوقاً بالزيت، وهم أحوج الناس إليه، فيعمدون إلى الزقاق الفارغة فينفخونها ويصفقونها في حوانيتهم، ليرى أهل المركب أن الزيت عندهم كثير بائر، فلو أقام أهل المركب ما شاء الله أن يقيموا، ما باعوا منهم إلا على حكمهم، وهم يعرفون بعبيد قرلة ويغضبون لذلك(المراكشي، 1986، صفحة 109)

الخاتمة

من خلال دراستنا للرحالة المغاربة والأندلسيين في القرنين الخامس والسادس الهجري، تطرقنا فيها الى حياتهم والتعريف بنتاجهم في الرحلات، مع اقتطاف نصوص مختارة من هذه الرحلات، توصلت الباحثة الى جملة من النتائج أبرزها:

حاول البحث الكشف عن الدور الفاعل الذي قام به الرحالة في إقامة جسور التفاعل الاجتماعي والثقافي، من خلال نقل كثير من مشاهد حياة الشعوب التي زاروها إلى بلدانهم وسائر الأقطار الأخرى. وقد تناول البحث بالتحليل والتفصيل المدعم بالأمثلة النصية المختارة من كتب الرحلات أبرز النقاط التي تقوم عليها العلاقة بين الأنا المتمثلة في ذات الرحالة، والآخر من خلال الخوض في المشاهد الحياتية العامة، الاجتماعية والدينية والثقافية.

تأثر الرحالة في أثناء رحلاتهم ببعض المواقف والسلوكيات التي تخالف ما ألفوه وعاشوه في بلادهم، فانعكس ذلك على طريقة تعاملهم ونظرتهم للأمور، فأنتجوا صوراً نفسية تقوم على التفاضل والتضاد في النظرة والحكم. وقد استطاع الرحالة أن يصوروا ويصفوا الحياة الأخرى من خلال مراحل حياتهم التي عايشوها وتفاعلوا مع أحداثها، وتأثروا ببعض نواحيها، وأن يعبروا في أوصافهم عنها أثناء خوضهم لمراحل الحياة الآخر في مختلف المجالات الاجتماعية والدينية والثقافية. وعكست كتاباتهم ما تكون لديهم من صور، أسهمت بشكل واضح في خلق عنصر التشويق في ما كتبوه ونقلوه، من عادات وتقاليد وأعراف، وسلوكيات دينية وثقافية تمس بطبيعتها فكر الآخر.

المصادر

الإدريسي، محمد بن محمد. (2002). *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

الاندلسي، ابن جبير أبو الحسن محمد بن احمد. (2003). *رحلة ابن جبير المسماة تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الاسفار* (المجلد 1). (أبراهيم شمس الدين، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.

الاندلسي، ابن جبير أبو الحسن محمد بن احمد. (1986). *اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك* (المجلد 2). دار ومكتبة الهلال.

البغدادي، إسماعيل باشا بن محمد أمين. (1951). *هدية العارفين اسماء المؤلفين وآثار المصنفين*. اسطنبول: وكالة المعارف.

البكري، أبو عبيدة عبد الله بن عبد العزيز. (1992). *لمسالك والممالك*. (ادريان ديفون، المحرر) تونس: الدار العربية للكتاب.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله. (1943). *كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون*. (محمد شرف الدين، المحرر) بيروت: دار احياء التراث العربي.

الحموي، شهاب الدين بن عبد الله ياقوت. (1993). *معجم الادباء ارشاد الاريب الى معرفة الاديب* (المجلد 1). (احسان عباس، المحرر) بيروت: دار الغرب الاسلامي،.

حميده، عبد الرحمن. (1995). *أعلام الجغرافيين العرب* (المجلد 1). دمشق: دار الفكر.

الريامي، كمال بن محمد. (2013). *مشاهير الرحالة العرب* (المجلد 1). القاهرة: كنوز النشر والتوزيع.

الزركلي، خير الدين بن محمود. (2002). *الاعلام* (المجلد 1). بيروت: دار العلم للملايين.

شاكر، محمود. (1994). *التاريخ الإسلامي، التاريخ المعاصر المسلمون في الأمبراطورية الروسية* (المجلد 2). بيروت: المكتب الإسلامي.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك. (2000). *الوافي بالوفيات* (المجلد 1). (احمد الارناؤوط، المحرر) بيروت: دار احياء التراث العربي.

الطباع، عمر فاروق ، الهاشمي، عبد المنعم ، و البيروني، أبو الريحان. (1993). *موسوعة العرب* (المجلد 1). بيروت: مؤسس المعارف.

عنان، محمد عبد الله. (1997). *دولة الإسلام في الأندلس* (المجلد 4). القاهرة: مطبعة المدني.

غانم، عبد الله عبد الغني. (1989). *الرواد المسلمون* (المجلد 2). الاسكندرية: المكتب الجامعي الحديث .

فهيم، حسين محمد. (1989). *أدب الرحلات، سلسة كتب ثقافية شهرية يمدها المجلس الوطن للثقافة والفنون والآداب*. الكويت.

فهيم، حسين محمد. (1989). *قصة الأثنروبولوجيا، سلسة كتب ثقافية شهرية يمدها المجلس الوطن للثقافة والفنون والآداب*. الكويت.

الكيلاني، جمال الدين فالح. (2014). *الرحلات والرحالة في التاريخ الاسلامي*. القاهرة: دار الزنبقة للطباعة والنشر.

المراكشي، محمد. (1986). *مقدمة كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار*. (سعد زغلول، المحرر) بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة افاق عربية.

Arabic Translated References:

Al-Andalusi, Ibn Jubayr Abu Al-Hasan Muhammad bin Ahmed. (1986). *Considering the hermit in mentioning noble relics and rituals* (Volume 2). Al-Hilal House and Library.

Al-Andalusi, Ibn Jubayr Abu Al-Hasan Muhammad bin Ahmed. (2003). *Ibn Jubair's journey called Tdhikrat bi al-Akhbar about travel agreements* (Volume 1). (Ibrahim Shams al-Din, editor) Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.

Al-Baghdadi, Ismail Pasha bin Muhammad Amin. (1951). *A gift to those who know the names of authors and works of authors. Istanbul*: Knowledge Agency.

Al-Bakri, Abu Ubaida Abdullah bin Abdul-Azbaz. (1992). *For paths and kingdoms*. (Adrian Devon, editor) Tunisia: Arab Book House.

Al-Hamawi, Shihab al-Din bin Abdullah Yaqut. (1993). *Dictionary of Writers, Guiding the Unbelievable to Knowing the Writer* (Volume 1). (Ihsan Abbas, editor) Beirut: Dar Al-Gharb Al-Islami.,

Al-Idrisi, Muhammad bin Muhammad. (2002). *Al-Mushtaq's Picnic in Breaking Through Horizons. Cairo*: Library of Religious Culture.

Al-Kilani, Jamal al-Din Falih. (2014). *Journeys and travelers in Islamic history*. Cairo: Dar Al-Zanbaqa for Printing and Publishing.

Al-Marrakshi, Muhammad. (1986). *Introduction to the book Al-Istibsar fi Aja'ib Al-Amsar*. (Saad Zaghloul, editor) Baghdad: Arab Horizons House of General Cultural Affairs.

Al-Riyami, Kamal bin Muhammad. (2013). Famous Arab Travelers (Volume 1). Cairo: Kunoz Publishing and Distribution.

Al-Safadi, Salah al-Din Khalil bin Aibak. (2000). *Al-Wafi bi al-Wafiyat* (Volume 1). (Ahmed Al-Arnaout, editor) Beirut: Arab Heritage Revival House.

Al-Tabbaa, Omar Farouk, Al-Hashemi, Abdel Moneim, and Al-Biruni, Abu Al-Rayhan. (1993). *Encyclopedia of Arabs* (Volume 1). Beirut: Founder of Knowledge.

Al-Zirkli, Khairuddin bin Mahmoud. (2002). *Media* (Volume 1). Beirut: Dar Al-Ilm Lilmalayin.

Anan, Muhammad Abdullah. (1997). *The Islamic State in Andalusia* (Volume 4). Cairo: Al Madani Press.

Fahim, Hussein Muhammad. (1989). *The Story of Anthropology, a monthly cultural book series provided by the National Council for Culture*, Arts and Literature. Kuwait.

Fahim, Hussein Muhammad. (1989). *Travel Literature, a monthly cultural book series provided by the National Council for Culture*, Arts and Literature. Kuwait.

Ghanem, Abdullah Abdul Ghani. (1989). *Muslim Pioneers* (Volume 2). Alexandria: Modern University Office.

Haji Khalifa, Mustafa bin Abdullah. (1943). *Revealing suspicions about the names of books and arts.* (Muhammad Sharaf al-Din, editor) Beirut: Arab Heritage Revival House.

Hamida, Abdul Rahman. (1995). *Notable Arab Geographers* (Volume 1). Damascus: Dar Al-Fikr.

Shaker, Mahmoud. (1994). *Islamic History, Contemporary History Muslims in the Russian Empire* (Volume 2). Beirut: Islamic Office.